

الأحوال الاجتماعية لروح الجماعات: عند "غوستاف لوبون"

Social conditions of the spirit of groups: at Gustave Le Bon

بن راشد رشيد¹، بلحاج حسنية²¹ جامعة محمد بن احمد (وهران2)، kmourad374@gmail.com² جامعة محمد بن احمد(وهران2)، hasnia23@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/09/27 تاريخ القبول: 2021/10/26 تاريخ النشر : 2021/12/04

ملخص:

وضع "غوستاف لوبون" تصنيفا للجماعات وفقا لأحوالها النفسية، والاجتماعية، والعقدية، والدينية، موضحا الدور الذي تلعبه الأخلاق والمشاعر في صياغة المعتقدات التي تقود الحشود المجتمعة، ويشير إلى القواعد العلمية دون الالتفات إلى الآراء والمذاهب المتحيزة.

انتهجنا في بحثنا هذا القراءة التحليلية لرؤية "غ، لوبون" وتتلخص في: من الخصائص المهمة للجماهير هي تلاشي شخصية الفرد التي تميزه حينما يكون جزءا من الحشود المجتمعة، الحشود المجتمعة ليست كالفرد يبحث عن الحقيقة بالأدلة والبراهين، بل هي كتلة تبحث عن البساطة لتسير حسبها نحو الهدف الذي تتوق إليه، المحركات الأهم التي يعتمد عليها القادة والمحركون للحشود هي التأكيد والتكرار والعدوى، إن أهم ميزة يجب أن يتحلى بها القائد هي النفوذ، وهي ما تجعله يفرض نفسه دون أن يقول أي كلمة على الجمهور، وهذه النفوذ يمكن أن تكون مصطنعة كالشهرة والمال، لكن أكثرها تأثير هي النفوذ الذاتية.

الكلمات المفتاحية: غوستاف لوبون، روح الجماعات، أحوال اجتماعية.

Abstract :

Gustav Le Bon categorized groups according to their psychological, social, complex and religious conditions, explaining the role that morality and feelings play in shaping beliefs that lead the assembled crowds, and referring to scientific rules without paying attention to biased opinions and doctrines.

In our research, we adopted this analytical reading of the vision of "G. Le Bon": one of the important characteristics of the masses is the disappearance of the personality of the individual that distinguishes him when he is part of the assembled crowds, and the most important engines on which leaders and crowds depend are confirmation, repetition and contagion, the most important advantage that the leader must have is influence, which makes him impose himself without saying a word to the public, and this influence can be as artificial as fame and money.

Keywords: Gustave Le Bon, Spirit of Groups, Social Conditions.

المؤلف المرسل: بن راشد رشيد،

1. مقدمة:

تتجرد الجماعات دائما عن الشعور بعملها وقد يكون هذا هو السر في قوتها، والجماعات المحتشدة في المجتمع على طوال الزمن لها تأثير واضح في مناحي الأمم، وهذه الحشود من الجماعات يكون لها روح من مجموع الصفات تظهر أثناء وجود ثورات أو قيام بعمل من الأعمال، حين تتولد لديهم أحوال نفسية تركز على خواص المجتمع، إن الحشود الجماعية خلفت ردود أفعالها مقابل الأفراد في المجتمع.

حاول "غوستاف لوبون" البحث في حشود الجماعات على استحالة الحصول على الوسائل المتاحة في ذلك، في حين يريد "غ، لوبون" الاستغناء عن

الأحوال الاجتماعية لروح الجماعات: عند "غوستاف لوبون"

النظريات والمسلمات في هذا الجانب، ويقول أنه ليس بيده أن يحولها من حال إلى حال، ويعلم أنه لا يجوز الحديث عن الأحوال الاجتماعية في مقابل الأمم التي ظهرت تلك الأحداث فيها إن صح إطلاق القيمة المحققة نسبياً، وهناك أسباب تدعو "غ، لوبون" إلى الحذر من الأحوال الاجتماعية بكل تشابكها واعتراف الباحث بعدم إلمامه بالزوايا كلها، والتعرف بما لها من تأثير وما بينها من التفاعل، ويشير كذلك أنه ليس بوسعها أن ينكر قوة الجموع المحتشدة وجهله بمكوناتها وفي كثير مما يخفيه باطن الأمم للقوى الكامنة، وأنه لا يجد شيئاً أفصح من اللغة المعبرة عنها، والبحث عن كيفية بناء النظام العجيب لأسلوب الحشود المجتمعة أو "روح الجماعات"، وعليه فإن الباحث على يقين من الأفكار السامية التي يحدثها النابغون من القوم وإنما هي عملهم الخاص (غولي، 2014، صفحة 110).

الحشود المجتمعة تنزع عنها دائماً الإقرار بشعورها وقد يكون هذا السر في قوتها، وتبقى رؤية "غ، لوبون" عن روح الجماعات تقف عند النواحي المحدودة في الاطلاع عن المستجدات ومعرفة الأشياء من طرف المعرفة الذاتية أو الاعتماد على مهارات العقل، وحتى لا يتوه في بحار الأوهام المظلمة وطرح الفرضيات الصماء التي لا تخدم حاضرنا، وإن يقتصر على تقرير الحوادث هنا وهناك في المجتمعات تحت حواس الباحث للوصول إلى استنتاجات مبنية على الملاحظات، يكون سبق للأحداث في غالب الأحيان لوجود من يخلف الحوادث التي يراها جيداً على أنها حوادث اجتماعية، ولا يراها إلا من زاوية مختلفة المعالم فوجب الغوص في أعماقها خلافاً على ما يراه بحواسه العادية (امطوش، 2018، صفحة 189).

ومن هذه الانطلاقة نطرح التساؤل التالي: هل ما قام به "غوستاف لوبون" في دراسة الحشود المجتمعة وإن لها روح جماعية بدلاً من الروح الفردية، تظهر في الثورات والعوامل المؤدية لذلك في المجتمعات؟ وتتفرع أسئلة أخرى مساهمة في ضبط المسألة كالتالي:

- كيف كان يرى "غ، لوبون" الجموع المحتشدة على خلاف الأمم السابقة؟
- ما المقصود بروح الجماعة التي تصدر لها "غ، لوبون"؟
- على ماذا استند "غ، لوبون" في تقسيماته للحشود المجتمعة؟
- هل كانت نظريته محققة في تفسير نفسية الحشود المجتمعة؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة نضع الفرضية التالية: يرى "غ، لوبون" على وجود دور الحشود المجتمعة يوازي دور الأفراد، وتمتاز هذه الجماعات بروح الاجتماع او نفسية الحشود. وقبل الخوض في ورقتنا البحثية هذه، نود ذكر الهدف من دراستنا التي تكمن في: معرفة التقسيمات التي قام بها "غ، لوبون" في عصره للجامعات المحتشدة، وكيف درس نفسية الجموع المحتشدة، وأردنا إظهار الزوايا التي درسها للجماعات وهي علم النفس الاجتماعي، وإطالتنا في التأمل لحوادث التاريخ دلتنا دائما على أن المجتمعات الإنسانية معقدة التركيب، لدنا قمنا بهذه القراءة التحليلية لمفهوم سلوك الجماعات النفسية كما تطرق إليها "غ، لوبون" وتوجد كذلك أهمية للموضوع في تزايد التراكم المعرفي لمحطة من محطات علم الاجتماع، وأهمية هذه الدراسة هي جزء من انشغالنا في البحث عن قضايا المجتمعات وكيفية انتقالها من حال إلى حال.

اعتمدنا في دراستنا على القراءة التحليلية لرؤية " غوستاف لوبون" في معرفة نفسية الحشود وكيف انه تحرى الأساليب العلمية الصرفة في ذلك، وكشفنا مميزات الأبعاد التي من خلالها قام بتحليل القانون العام لوحدة الجماعات، وقمنا بعرض المؤشرات التي تناول فيها مشاعر الجماعات، أفكارها، وأخلاقها، وناقشنا قضية روح الاجتماع، بمعنى نفسية الحشود المجتمعة، وتحليل كيف يرى "غ، لوبون" العوامل القريبة من طرق الإقناع لهذه الجماعات، والعوامل البعيدة في معتقداتها، وقبل البدء في مرحلة خطوات القراءة التحليلية، بداية نحدد المصطلحات والمفاهيم للدراسة:

• غوستاف لوبون

غوستاف لوبون، (07ماي 1841 - 13 ديسمبر 1931) هو طبيب ومؤرخ فرنسي، عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، كتب في علم الآثار وعلم الأنتروبولوجيا، وعني بالحضارة الشرقية. من أشهر آثاره: حضارة العرب وحضارات الهند وباريس 1884 و الحضارة المصرية و حضارة العرب في الأندلس وسر تقدم الأمم وروح الاجتماع الذي كان انجازه الأول (مظهر، 2010، صفحة 96).

هو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين امتدحوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية. لم يسر "غ، لوبون" على نهج معظم مؤرخي أوروبا، حيث اعتقد بوجود فضلٍ للحضارة الإسلامية على العالم الغربي، قام "غ، لوبون" برحلاتٍ عدة ومباحثات اجتماعية خلال حياته في العالم الإسلامي، اعتقد بموجها أن المسلمين هم من مدنوا أوروبا، وقد عبر عن آرائه بالمسلمين وحضارتهم، ومن مؤلفاته: حضارة العرب (1984)، روح الثورات والثورة الفرنسية، روح الجماعات، السنن النفسية لتطور الأمم، روح التربية، روح السياسة، فلسفة التاريخ، اليهود في تاريخ الحضارات، حياة الحقائق، الآراء والمعتقدات، حضارات الهند، روح الاشتراكية (مظهر، 2010، صفحة 101).

• روح الجماعات:

ما أشار إليه "غ، لوبون" في مفهوم روح الاجتماع للجماعات في المجامع، هو كاريزما القائد الجماهيري، الذي لا يشترط فيه نباهة علمية أو ثقافية أو امتلاكه لحكمة فلسفية، بل قدرته على استنهاض همم الجماهير وتهييج عواطفهم ليكونوا كتلة واحدة، ويؤكد "غ، لوبون" على غياب الشخصية الواعية للأفراد وسط الجماعة التي ينتمي لها الفرد غالبا، ليجد الفرد منسقا مع الجماعة، أو ما أسماه في كتابه سيكولوجيا الجماهير أو الجمهور النفسي الذي يشكل ما أطلق عليه روح الجماعات، ليثبت انه مهما تكن نوعية الأفراد الذين يمثلون هذه الجماعة،

بمجرد تحولهم إلى جماعة محتشدة يُزودهم بنوع من الروح الجماعية لتؤكد اختفاء الوعي الفردي، ويكون الفرد بمثابة جزء من جسد الجماعة (امطوش، 2018، صفحة 76).

يضع "غ، لوبون" مجموعة من الخصائص لسيكولوجيات الفرد المنخرط في الجمهور، وتشكل روح الجماعة وان صح التعبير بالحشود المتجمعة: تلاشي شخصيته الواعية، وهيمنة الشخصية اللاواعية، تأثيره كحال غيره من الجمهور بعدوى العطف والتحريض، الميل لتحويل أفكار المحرض عليها إلى فعل وممارسة، في كل هذه الخصائص يتحول الفرد فيها إلى إنسان آلي ليغيب عقله الفردي، أو يكون ضمن حركية روح الجماعة، وحدد "غ، لوبون" نفسية الجماهير بسمات أساسية: سرعة انفعال الجماهير، سرعة تأثر الجماعات وتصديقها لأي شيء، تعصب الجماعات واستبدادها بالتمسك لمطالبها، أو ما يُمكن تسميته بـ الروح المحتشدة للجماعة لأنها محكومة بغياب الوعي العقلاني الفردي (امطوش، 2018، صفحة 79).

• أحوال اجتماعية:

إن التحولات الاجتماعية التي تسبق عادة تشكل الحضارات تبدو وكأنها محسومة من قبل ، ولكن الدراسة الواعية لهذه الظواهر تكشف أن السبب الحقيقي هو التغير العميق الذي يمس أفكار المجتمعات، إن الأحداث الضخمة التي تناقلها كتب التاريخ ليست إلا نتاجا للمتغيرات الباطنية لسيكولوجية الشعوب، الفترة التي تحدد تبدل الأحوال الاجتماعية عند الشعوب هي فترة التحولات لوجود عاملان أساسيان هما: هدم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية، وخلق شروط جديدة كلياً بالنسبة للوجود والفكر (غولي، 2014، صفحة 56).

الأحوال الاجتماعية لروح الجماعات: عند "غوستاف لوبون"

عند "غ، لوبون" إن بناء أي حضارة يتطلب قواعد ثابتة، ونظامًا مُحددًا، والمرور من مرحلة الفطرة إلى مرحلة العقل، والقدرة على استشراق المستقبل، ومستوى عالي من الثقافة، فالجماعات المحتشدة هي التي تصنع التحولات الاجتماعية او نقول عنها أحوال المجتمع، والمجموعات بواسطة قوتها المتحدة تمارس عمل الجراثيم التي تساعد على انحلال الأجسام الضعيفة أو الجثث، فمعرفة نفسية الجماعات تشكل المصدر الأساسي لقيام حضارة جديدة، فكل الزعماء ورجال الدولة العظام كانوا علماء نفس على غير وعيٍ منهم، ونفسية الحشود تبين لنا إلى أي مدى تبدو عاجزة عن تشكيل رأي شخصي ما عدا الآراء التي أدرجت لها، فالأحوال الاجتماعية هي صنعة الجماعات المحتشدة للأفراد لا يتصرفون أبدا انطلاقا من مبادئ العقل النظري البحت (غولي، 2014، صفحة 66).

2. التحليل والمناقشة:

يبدو في الغالب ان تغير الحضارات في الأمم السابقة كانت نتيجة تطورات سياسية وغارات وسقوط اسر حاكمة، لكن الحقيقة تكمن عند "غوستاف لوبون"، هو ليس التقلبات السياسية وإنما التغيير الصحيح الجدير بالمناقشة والاهتمام الذي يؤدي إلى تبدل حال لأفكار والمعتقدات والأحداث الكبير المسجلة في كتب التاريخ ما هي إلا آثار ظاهرة لتغير خفي في أفكار الناس، وإذا كانت تلك التحولات الكبيرة في الأمم نادرة سببها إلى تشبثها بأفكارها المرسخة لدى الوعي الثقافي المتوارث عن الآباء، ويحدد "غ، لوبون" تطور الفكر الإنساني للحضارات. وعند علماء النفس، مجرد اجتماع مجموعة من الأفراد لا يكفي لتكوين، لأنه يجب توفر عامل الشعور الجماعي كما سماه "غ، لوبون" نفسية الحشود وتنعدم عندها الأفكار والمشاعر الفردية، وتكون الجماعة خاضعة لحكم اللاشعور، والجماعات بالمعنى المتعارف عليه هو الالتفاف حول رأي موحد مهما اختلفوا

سواء عرقا أو ايدولوجيا أو من ناحية الجنس إناث و ذكور، وليس من السهل شرح حقيقة روح الجماعات شرحا مفصلا لان نظامها يختلف اولا باختلاف الشعوب وتركيباتها الاجتماعية، وثانيا باختلاف طبيعة المؤثرات التي تقع على الجماعات المذكورة، والتعقيد يكمن في البحث في نفسية الفرد الواحد (Koselleck, 1990, p. 104).

أهم ما تمتاز به روح الجماعة عند " غ، لوبون" وجود روح عامة تجعل جميع أفرادها يشعرون ويفكرون ويعملون، لذلك كان من السهل معرفة الفرق بين الفرد في الجماعة وبين الفرد وحيدا غير انه يصعب الوقوف على السبب في ذلك، وهذه الصفات العامة في الطباع المحكومة باللاشعورية الموجودة في جميع أفراد كل امة بدرجة واحدة تقريبا وهي التي لها المقام الأول في حركة الجماعات، فتخفي مقدرة الأفراد العقلية في روح الجماعة، لكن لو كان كل فرد في الجماعات لا يأتي لها الا بما اشترك فيه من الصفات مع غيره (Merlin, 1994, p. 113) ، إذن تصبح النتيجة حدا وسطا فقط، ولم تتولد سلوكيات جديدة كما قدمنا سبق وان طرحنا ذلك، فما الذي يجعل الجماعات تكتسب تلك الصفات؟، تولد هذه الصفات المتميزة في الجماعات دون الفرد، أولا إحساس الفرد في الجماعة بالحرية في إبداء توجهاته وسط الجماعة كقوة محفزة، والسبب الثاني هو توحيد الجماعة بسبب العدوى التي تتكون لدى الأفراد وتصبح عدوى جماعية، وهي من فصيلة الحوادث المغنطيسية، والسبب الثالث وهو أهم سبب مما يولد في الجماعة صفات خاصة، قابلية التأثر التي هي أصل العدوى السابق، والخلاصة إن اختزال الذات الشعورية وتسلط الذات اللاشعورية واتجاه المشاعر والأفكار بعامل التأثر والعدوى نحو اتجاه واحد فهو لم يعد هو بل صار آلة تحكمها إرادته، ونستخلص مما سبق ان الجماعة دائما دون الفرد إدراكا ولكنها من جهة المشاعر

الأحوال الاجتماعية لروح الجماعات: عند "غوستاف لوبون"

قوية بالنسبة للفرد والأمر في ذلك راجع إلى الكيفية التي تستثار بها نفسية الجماعة المحتشدة (Gusfield, 1981, p. 75).

بما أننا أجملنا في خواص الحشود المجتمعة يجب أن نطرق بالتفصيل على أفكار الجماعات ومعتقداتها، ونبدأ بمشاعر الحشود وأخلاقها، العديد من المميزات التي تختص بها الجماعة المحتشدة مثل الاندفاع والغضب وعدم السيطرة على التعقل وفقدان التوازن وملكة الارتقاء بالفكر والنقد والمبالغة في المشاعر وغيرها، كما ذكرنا سابقا إن القدوم نحو الأمام للجماعة دون الشعور بالدافع إليه، وقد تكون الأفعال التي تصدر عنها مجملة من حيث التنفيذ إلا أن العقل ليس في إرادته الواعية يعمل طوعا للمؤثرات التي تدفعه إلى العمل خارج سيطرته، فالجماعة المحتشدة هي لعبة بيد من يهيج أفكارها وتمثل تقلباتها المستمرة، تصبح مسخرة للمؤثرات التي تقع عليها وتخرج الفرد أمام واقع لم ي توقعه الوصول إلى ذلك، وأنواع المؤثرات في الحشود المجتمعة مختلفة جدا وقد كانت تخضع لها دأمان وشدة تقلب المجموعة المحتشدة تجعل قيادتها أمرا صعبا على من يقوم بتوجيهها، إلا أنه بقدر ما تتطرف الجماعة المحتشدة في إرادة الشيء تسرع بالعدول عن تلك الإرادة المستمرة، وليست قابلية الاندفاع والتقلب كل ما يمتاز به الجماعة، بل هي تمتاز بالهمجية لا تعترف بوجود فاصل بينها وما تصبو إليه الجماعة المحتشدة.

ذكرنا في خاصية الحشود المجتمعة إن لها ميزة قابلية التأثر وتوجه الجماعة نحو غرض محدود توجهه جهة معينة، ولا يعني هدوء الجماعة المحتشدة توقف نشاطها وإنما هو انتظار واستعداد يجعل التأثير فيها سهلا، فترى أول فرد محرك ينقل عدواه إلى كل الحشود المجتمعة، وطالما كانت الجموع تتعرض لنوبات لاشعورية غير قادرة على استيعاب المؤثرات الخارجية التي تدر حولها، ثم إن سرعة تصديق الحشود المجتمعة ليس هو السبب في زرع الأكاذيب،

بل هناك عامل آخر وهو التشويه الذي يغزو الحوادث لدى عقلية المجتمعين، أذا تكون الواقعة بسيطة فتتقلب الصور في أذهان الحشود المجتمعة، وفي الحقيقة كان يجب تعدد أنماط التشويش التي تتخلل الجموع المحتشدة، ولا ينبغي الرد في ما سبق، الاحتجاج بمن هو ضمن الجماعة المحتشدة من أهل العقل الراجح والذكاء الثاقب لأنه لا تأثير لتلك الأنماط في خاصية الجموع المحتشدة، يتساوى ذو المستوى المحدود مع العقل الراجح لان شعور الجماعة ذاب وانصهر في عقلية الجماعة المحتشدة، وليس من اللازم أن تتكون الجماعة المحتشدة لعدد كبير حتى تنعدم فيها حاسة رؤية الأمور على حقيقتها وتغير مخالف لنمطها، فجميع مشاهدات الجماعة تكون في الغالب معرضة للخيال والمبالغة فيها، مقابل مخيلة الفرد سارت عند كل الجماعة،

مهما كانت مشاعر الجموع المحتشدة جماعية بمعنى سيئة أو جيدة، طيبة اورديئة، فهي تتصف بأمرين بسيطة للغاية، ومبالغ فيها للنهاية، ومما يزيد في غلو مشاعر الجماعة إن كل إحساس يبدو سرعان ما ينتشر بفعل العدوى من الجماعة، والالتفاف حوله يزيد من قوته، وتزيد شدة المشاعر غلوا عند الجماعة المؤلفة من الأفراد غير المتشابهين، فيتولد عندهم من المشاعر والأعمال ما يستحيل صدوره لدى الفرد الواحد، وكما أن الجموع المحتشدة تغلو في مشاعرها فلا يحركها إلا تلك المشاعر المبلغ فيها، فالخطيب في الجماعة وجب له أن يزيد في التوكيد على الأعمال الجادة، لان والتكرار والمبالغة والتوكيد من سمات الخطباء ليسو مضطرين على براهين قضايا يطرحونها، كل وسائل خطابية محضة يعرفها أصحاب الاجتماعات العمومية حق المعرفة، ولسنا بحاجة للقول بان مغالاة الجموع المحتشدة تكون على الدوام مبالغ فيها ولا تتعدى إلى بلوغ قوتها العاقلة، ويرى "غ، لوبون" ان الجماعات لا تعرف من المشاعر إلا ما كان متطرفا، لذلك هي تقبل ما يصلها من الأفكار والآراء بجملتها فتقبلها أو ترفضها، ولما كان باب الشك

الأحوال الاجتماعية لروح الجماعات: عند "غوستاف لوبون"

غير مفتوح أمام الجموع المحتشدة في كل معتقداتها سواء بالباطل أو الحق (Descombes, 1996, p. 86)، فالفرد قابل للمناظرة أما الجموع فترفض كل ما هو مغاير لرأيها، عدم الاستيعاب والاحتمال أمران شائعان عند الجموع المحتشدة. كيفما كانت الأفكار التي تلقى في نفوس الجموع المحتشدة، فإنها لا تسود ولا تتمكن إلا إذا وضعت في شكل قواعد مطلقة بسيطة لتبدو لها في هيئة صورة تحسنها وهو الشرط اللازم لأن تحل من نفوسها محلا كبيرا وليس بهذه الأفكار المصورة أقل رابطة عقلية من التشابه أو التلازم فيجوز أن يحل بعضها محل بعض، هذه خاصية ليست لحال الجموع المحتشدة وحدها، بل تكون عند الأفراد لا فرق في ذلك بين من لا يزال على الفطرة ومن يشبههم من ناحية العقل، ولما كانت الجموع المحتشدة لا تقبل الأفكار إلا إذا صارت بسيطة جدا لزم عليه إن هذه الأفكار لا تنشر ولا تصير عمومية إلا إذا تغيرت في الغالب تغيرا تاما وأكثر ما يشاهد ذلك في الأفكار الفلسفية والعلمية الراقية، ويختلف التغير عند "غ، لوبون" باختلاف الجماعات أو الأمم، إن منزلة الفكر عند الجموع المحتشدة لا أهمية لها من الوجهة الاجتماعية إذ المعول عليه إنما هو الأثر الذي ينتج عنه، ثم إن الفكر وإن تغير حتى صار تناوله في مقدور الجماعات لا يظهر أثره إلا إذا دخل في عداد الغرائز وامتزج بالنفس فأصبح من المشاعر وهو ما يقتضي زمنا طويلا، فلا يتوهن القارئ إن أثر الفكر يظهر متى تباينت صحته حتى عند ذوي العقول النيرة (Descombes, 1996, p. 89)، كما إن وصول الأفكار إلى نفوس الجماعات يتطلب وقتا كافيا للخروج منها، لهذا كانت الجموع المحتشدة متأخرة في أفكارها. والحاصل أن رقي الجماعة بأفكارها عبارة عن تعقلها بالجمع بين أشياء متخالفة لا رابطة بينها إلا في الظاهر والانتقال المفاجئ من الجزئي إلى الكلي ومن التخصيص إلى التعميم، الجموع المحتشدة مثل الذوات التي لا تتعقل في وحدة التخيل وفعله الدائم وفي قابليتها للتأثير الشديد فالصورة التي تحضرها من

إنسان أو واقعة تكاد تؤثر فيها كما لو كانت الحقيقة بعينها وحال الجماعات أشبه بحال المنوم الذي تقف فيه حركة العقل فترة وجيزة، لا تتعلق الجماعات إلا بالتخيل ولا تتأثر إلا به فالصور هي التي تفرعها وهي التي تجتذبها وتكون سببا غير فعال لذلك، فأما التأثير في مخيلة الجموع المحتشدة، وعند "غ، لوبون" خيال الجموع المحتشدة هو ما يمثل لها في صورة أخاذة واضحة مجردة عن التعقيد وغير مصحوبة إلا بما فيه غرابة أو سر مكنون كانتصار باهر أو معجزة، تؤثر أقل تأثير في تصور الجموع المحتشدة (Certeau, 1980, p. 143).

الجموع المحتشدة من المنظور الديني عند "غ، لوبون" وغدا دققنا النظر في اعتقاد الجموع أيام سيادة الأديان أو في أزمة الثورات السياسية الكبرى التي حصلت في القرن الماضي، رأينا أنها تأخذ طابع بصيغة مخصوصة، ومن المعلوم إن التعصب وعدم الاحتمال يصاحبان كل شعور جماعي، وكذلك تظهر معتقدات الجموع المحتشدة بالخضوع التام والتعصب الأعمى والإكراه في الدعوة وكلها صفات من لوازم الشعور الديني المنحرف عن نهجه، لدى نرى انه من غير المعقول تكرار انه لا بد للجموع المحتشدة من دين منحرف، ما دامت جميع المعتقدات والسياسات لا تطمئن عنها إلا إذا لبس ثوب الدين الذي يحيي أفكاره المنحرفة، الذي يحميها من الجدل ويجعلها فوق بحث الباحثين بل لو أمكن إدخال عدم الاعتقاد في الجماعات، لا اشتد تعصبهم فيه وكأنه معتقد ديني وأصبح فورا في الخارج دينا يتعبد به الناس، ولا تظهر في الوجود أمثال الانقلابات التي مر ذكرها إلا إذا قذفت من جوف الجماعة وليس في استطاعة أكبر المستبدين إثارتها والمؤرخون الذين أتاحوا لنا مثل هذه المظاهرات لا تخرج إلا من قلب الجماعات (Lippman, 1965, p. 157).

وأما العوامل البعيدة التي تولد المعتقدات والآراء عند "غ، لوبون" فهي التي تهيأ الجموع المحتشدة لقبول بعض المعتقدات دون بعض، وبمعنى أنها تعد

الأحوال الاجتماعية لروح الجماعات: عند "غوستاف لوبون"

الأرضية التي تنبث فيها أفكار جديدة ذات قوة واثرة، وظهور تلك الأفكار يكون فجأة، أما العوامل القريبة فهي التي تأتي بعد هذا العمل الطويل ولا اثر لها بدونه ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعي إلى العمل، يعني إنها تقوم الفكر وتقذف به إلى الخارج مع جميع ما يحتمل من النتائج، تعاقب هذه العوامل بقسميها في جميع حوادث التاريخ المتجددة، ثم جاءت العوامل القريبة مثل خطب الخطباء ومعارضة المعارضين، ومن العوامل البعيدة ما هو عام بمعنى انه يؤثر في معتقدات الجموع المحتشدة، والتقاليد عبارة عن ماضي أمم سابقة في أفكارها وحاجاتها ومشاعرها، والذي يقود الناس لا سيام إذا اجتمعوا، إنما هي التقاليد وهم لا يسهل عليهم أن يغيروا منها إلا الأسماء والأشكال، إذن تلعب التقاليد الروح القومية لدى الشعوب ولا حضارة تتكون بدون الاعتراف بتقاليدها (Lippman, 1965, p. 161) لذلك من المكاسب الذي تحافظ عليها الأمم هي تقاليدها وموروثا ثقافيا وان تسير بها من حال إلى حال بحرص شديد والاحتفاظ بمقوماتها، واشد الفئات حرصا على المحافظة على الأفكار التقليدية وأصعبهم مراسا في معارضة التخلي عنها ومن يحاول تبديلها هم الجماعات التي تتشكل منها جموع محتشدة كما ذكرنا سابقا.

إن تقدم الأمم من أثار إتقان النظاميات وإصلاح الحكومات وانه يمكن أحداث الانقلابات الاجتماعية بواسطة الأوامر والقوانين، لهذا كان من المحقق إن الأمة لا تملك كل الملك بتغيير نظامياتها، فقط تبدل الأسماء، أما الأسماء فهي عناوين لا يلتفت إليها المؤرخ الذي ينقب عن حقائق الأشياء، ولو أردنا تبيان كون القوانين في كل امة مختزلة في من روحها إن صح التعبير، وانه لا يمكن لذلك تغييرها عنوة وقسر، لوجب أن تأتي على كل قانون ونخوض في كل نظام، ولكل عصر أفكار تسود فيه وان كانت في الغالب من قبيل الخيالات وقد بينا في غير هذا المكان ما لتك الأفكار من القوة، والأفكار السائدة في عصرنا أن التعليم قدرة على

تغيير الرجال تغيرا محسوسا وان نتيجته التي لا يشكون فيها هي إصلاحهم بل إيجاد المساواة بينهم، هذا التعليم الفني الذي تطلبه الآن العقول النيرة هو الذي تلقاه أبائنا وهو الذي حافظت عليه الأمم التي تحكم الدنيا بما أوتيت من الإقدام الذاتي في الأعمال والاستطاعة على التحكم في تنظيم الحسود المجتمعة.

يرى "غ، لوبون" أن للجموع المحتشدة في الغالب يكون لها قائد رأي، والعادة إن القائد يكون قبل ذلك منقادا تحت رأي الجماعة، بمعنى انه تأثر بالفكرة التي أصبح هو الداعي إليها حتى تمكنت منه اشد تمكين، ومن المنصبين على قيادة الجماعة وفي الغالب لا يتصفون بالبداهة ورقي الأفكار وإنما هم أهل العمل والإقدام، لأن التأمل دائما ما يأخذ للشك ثم إلى السكون، عرف قائد الرأي للجموع المحتشدة، على الدوام بث المعتقدات في النفوس لا فرق أن يكون دينيا أو سياسيا أو اجتماعيا، في وهلة يقع الفرد تحت حكم قائد يتبعه كلما خرج عن العزلة إلى الجماعة، وذلك أمر واقع في جميع الطبقات أرقاها وأدناها، ومما يساعد كثيرا على قوة تأثير الأفكار التي بعثت في الجموع المحتشدة، بواسطة التوكيد والتكرار والعدوى كونها تنتهي باكتساب قوة النفوذ، لا تقف أمامها قوة مماثلة، وكل سلطة سادت في الوجود سواء كانت في سلطة الأفكار أو الرجال فهو السبب في قيامها وسيادتها، ويمكن القول أن النفوذ عبارة عن سلطة رجل أو عمل أو فكر يستولي بها على العقول، وتلك الملكة تعطل وظيفة النقد ولا يمكن تفسير الشعور الذي يحدث منه كما هو الشأن في كل شعور، ثم النفوذ أنواع يمكن حصرها إلى قسمين: النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصي، فالأول يرجع لاسم صاحبه أو ثروته أو شهرته، أما الثاني فهو أمر ذاتي قد يجتمع مع الشهرة والمجد، وأكثر النوعين شيوعا هو المكتسب أو العرضي فهو يثبت للفرد بكونه يشغل منصبا، والنفوذ خاص بالإنسان، والى جانبه يوجد النفوذ الذي يكون للأفكار أو الأدبيات أو الفنيات وغير ذلك، وهو في الغالب ناشئ من التكرار، تحتاج الجماعات

الأحوال الاجتماعية لروح الجماعات: عند "غوستاف لوبون"

دائماً والأفراد غالباً إلى آراء حاضرة في جميع المناحي وانتشار هذه إلا راء غير مرتبط بما اشتملت عليه من الصواب أو الخطأ بل مرجعه لما لها من نفوذ (Marcuse, 1964, p. 210).

في المعتقدات الثابتة يوجد ما هو ثابت لا يتغير ومنها ما هو متقلب يتغير بسهولة من اثر المجتمع، وقد يبلغ التغيير درجة تختفي فيها الخواص الأصلية، كذلك الحال في الخواص الأدبية، من أخلاق الشعب ما هو ثابت لا يغيره تكرار الأيام، ومنها ما هو متقلب يتغير، تنقسم معتقدات الجماعات إلى قسمين الأول المعتقدات الدائمة التي تعمر عدة قرون واليها ترجع الأمة كلها، والمعتقدات الثانية ه التي تشمل الأفكار الوقتية المتغيرة، مشتقة من في الغالب من الأفكار العامة تظهر وتغيب في الجيل الواحد، من الأفكار والآراء ما يتجدد ويزول دائماً، ومنها ما يدوم ممكن ليوم واحد، وأهمها لا يدوم أكثر من الجيل الثاني الذي نشأت فيه، وإذا دققنا البحث في هذه التقلبات التي يخال أنها حقيقية متأصلة في النفس، وما كان منها مخالفا للاعتقادات العامة ومشاعر الشعب فهو زائل لا يدوم إلا قليلاً جداً، كان زمام الأمر في القرن الماضي ما هو في يد الحكومات وبعض ذوي النفوذ من الكتاب وعدد مخصوص من الجرائد، نتج عن هذا رأي الجماعات يقرب كل يوم من الاستيلاء على زمام الأمور، وأما الجرائد فبعد أن كانت تقود الرأي العام كالحكومات اضطرت إلى التسليم أمام سلطان الجماعات، وللجرائد اثر شديد في الجموع وذلك أنها صارت تعكس آرائهم وأفكارهم ومتغيرة باستمرار (Marcuse, 1964, p. 226).

بينما تطرقنا الى تصنيف الجموع المحتشدة عند "غ، لوبون" فإننا الآن نصل إلى تقسيمات الجماعات، تتألف من أفراد أيا كانوا وكيفما كانت حرفتهم ومهنتهم وعقولهم ونحن الآن نعرف انه متى اجتمع جمع كانوا لحمة واحدة عاملة وتختلف أحوالهم النفسية الاجتماعية مع أحوالهم الفردية اختلافا عظيماً وان

العقل لا يمنع من هذا الاختلاف لأنه لا تأثير له في الجماعات وان الذي يؤثر فيها إنما هو المشاعر الغريزية، وعليه تحكم روح الشعب دائماً روح الجماعة فهي لها مثل الدائرة المنيعه التي تنظم تقلباتها وتحدد حركاتها، أما الجماعات أو الحشود التي لا اسم لها كجماعات الشوارع، وهناك قسم للجماعات وتدعى المؤتلفة العناصر، تتألف من أفراد مختلفين في التربية والحرفة والبيئة أحياناً ولا جامعة تجمعهم إلا وحدة الاعتقاد ومن هذا النوع السياسة والدين، والطبقات هي التي أفرادها من منسئ مختلفة اجتمعوا ليس بسبب الاعتقاد ولا بتمائل حرفهم، بل بجامعة المنافع و حالة المعيشة والتربية مثل طبقة الأواسط في المجتمع، ولقد تطرق "غ، لوبون" لجماعات أخرى لا تخدم دراستنا تتمثل منها، الجماعات الجارمة، العدول المحلفون أمام محاكم الجنيات، جماعات الانتخاب، المجالس النيابية (امطوش، 2018، صفحة 206).

3. الخاتمة:

لقد تناول فلاسفة آخرون علم النفس الاجتماعي مثل أفلاطون وأرسطو والمفكر العربي ابن خلدون وهوبز وجان جاك روسو وأوغست كونت مؤسس علم الاجتماع، لكن القرن العشرين هو الزمن الذي أسس فيه لعلم النفس الاجتماعي على مناهج علمية، وفي أربعينيات القرن العشرين، تنازعه ثلاثة تيارات أساسية، هي: التيار السلوكي أو التجريبي، والتيار التحليلي، والتيار الثقافي المعتمد على علم الأناسة (الإثنولوجيا)، بعدها استمرت الدراسات في هذا المجال، وركزت على البحوث المتمركزة حول مسألة تكوين الشخصية ودمجها في الوسط الاجتماعي، ودراسة الخلافات والتميزات الموجودة بين الشعوب، وكان تاريخ القرن التاسع عشر كله تاريخاً للصراع بين الثورة والارتداد علمياً، وكان الخوف عارماً من الطبقات الشعبية، وفي أواخر القرن التاسع انتصر العلم، واشتدت أزمات الأنظمة الديمقراطية البرلمانية، وشهد العالم ظهور الاشتراكية وصعودها، ثم ظهور القوى

الأحوال الاجتماعية لروح الجماعات: عند "غوستاف لوبون"

الشعبية التي رافقتها، وبعد أن خرجت فرنسا مهزومة من حربها مع ألمانيا في سبعينيات القرن السابع عشرة، لتعيش حالة من التهميش الشعبي. وفي ظل ضعف الحكومات والأحزاب السياسية، والعجز عن مواجهة المتمردين،

اصطدم "غ، لوبون"، المنظر الأول في تلك المرحلة، بظاهرة الحشود أثناء دراسته لقضايا علم النفس، وخصوصا المتمثلة بالجموع المحتشدة، وقد دفعه ذلك إلى بلورة نظريته المتعلقة بنفسية الشعوب شيئا فشيئا وهو استلهم كثيرا في بنائه البحثي من المؤرخ الاجتماعي "هيبولت تين"، وهومن أكبر المنظرين للعنصرية في أوروبا كلها، كان "غ، لوبون" يشعر تجاه الحشود بالاحتقار، لأنه في الأساس ينتمي إلى التراث الليبرالي والبرجوازي، وكان ضد الثورة وضد الفكرة الاشتراكية الصاعدة حينها. لذلك كان مرفوضا من قبل الأوساط الثقافية والأكاديمية المعاصرة نتيجة انتمائه الطبقي هذا، وأيضا نتيجة تبني أفكاره وتحليلاته من قبل الحركة الفاشية في أوروبا من جهة ثانية، ويقال إن سوء حظه يعود إلى أن هتلر وموسوليني كانا من قرائه، وذلك كان السبب الأهم لنبذه. لكن الحشود كانت حقيقة واقعة، "غ، لوبون" كباحث لم يكن قادرا على احتقار الوقائع المادية، فأخذ يدرسها ويفهمها، بدأ بدراسة ظاهرة الحشود دراسة علمية، أكدت أن روح الحشود مكونة من الانفعالات البدائية، ومكرسة بواسطة العقائد الإيمانية القوية، وهي أبعد ما تكون عن التفكير العقلاني والمنطقي، وكما تخضع روح الفرد لتحريض المنوم المغناطيسي، فإن روح الحشود تخضع لتحريض أحد المحركين أو القادة الذي يعرف كيف يفرض إرادته.

يرى علم النفس الاجتماعي أن نفسية الفرد تتعارض مع نفسية الحشود المجتمعة، وأن لها شخصية كلية واحدة تختلف عن الشخصية الفردية، كما أثبت أن الفرد عندما يندمج مع الجماعة المحتشدة، فإنه يكتسب سلوكيات خاصة به لم يتصف بها من قبل. مثل الاندفاعية والإحساس بالحرية وأقدر على

التعبير عما يجول في رأسه، لقد ذهب هذا العلم الذي أسس له "غ، لوبون" بعدا في تحليل الآليات التي تحرك الحشود وتحدد خياراتها، وكيف أن القرارات التي تتخذها الحشود المجتمعة من الأفراد الأذكاء لا تختلف كثيرا عن القرارات التي تتخذها مجموعة أخرى تتميز بالبلاهة، ففي حالة التجمع لا مكان للتفكير المستقل ولا للتفسير الشخصي حسبما وضع "غ، لوبون" وهي النفسية الواحدة والمسيطرة، إنها "روح الاجتماع". هكذا عندما تتجاوز الحشود المجتمعة وعيها الفردي تتحول إلى تركيب كلي ومختلف، لا يؤمن بالمحاكمات العقلية، بل بما هو كلي ومنظم، لذا تنجح في تحريك هذه الحشود الخطابية المهيبة بأهداف مطلقة ، والأفكار المخدرة التي تبتعد عن الواقع، وبرأي علماء النفس وتحليل الخطاب، فإن كل ما هو فردي أو مغيب يزوي في هياج الحشود المجتمعة، أو يتحول في لحظة إلى ضحية لهياج الجماعة دفعة واحدة.

جاءت نظرية "غ، لوبون" واضحة وبسيطة، فقد قامت على فكرة مفادها أن كل كوارث الماضي تعود إلى تجمع الحشود التي صنعت لي نفسها مكانا على مسرح التاريخ، ولقد حصل "غ، لوبون" على مكانة أكاديمية رفيعة كان يطمح لها، بعد أن قدم نظرية علمية متكاملة ومتماسكة، وأصبح الأستاذ الفكري لمرحلة كاملة، وحافظ على هذه المكانة حتى نهاية حياته. وقد بلغت نظريته أوجها في العشرينيات، وراح هذا العلم يجذب بقوة النخبة الديمقراطية التي وجدت فيه تفسيراً علمياً للخوف العميق من الحشود المجتمعة من جهة، وأيضاً القواعد التي تساعد على التحكم بعنف الحشود من جهة ثانية، ورغم الانتقادات التي وجهت لنظرية روح الاجتماع أو نفسية الجماعات عند "غ، لوبون"، وتعرض للنقد الشديد على سلبية الإرادة الفردية، إلا أن هذه النظرية حققت، نجاحاً واسعاً في مجال علم النفس الاجتماعي، ولا تزال حتى يومنا هذا مرجعاً أساسياً في مجال علم النفس الاجتماعي وكل من يبحث في سبل التأثير على الجماعة وتوجيه وعيها،

الأحوال الاجتماعية لروح الجماعات: عند "غوستاف لوبون"

أو مخاطبتها بموهبة تتخطى أحيانا الوعي الإنساني، أشار "غ، لوبون" في كتابه "نفسية الجماعات" الذي صنف في علم النفس الاجتماعي ومن بين أهم الكتب التي صدرت في القرن العشرين وأسست لحقائق تتعلق بعلم سيكولوجية الجماعة، حقائق غير قابلة للنقد طوال أكثر من قرن، وهذا يفسر صمود بحثه في هذا العلم التأسيسي كمرجع ثابت طوال زمن من البحوث العلمية المتراكمة التي مهدت كثيرا ممن سبقها، وقد اعتمد معظم الباحثين على كتاب "غ، لوبون" ونظرياته من أجل دراسة هذه الظاهرة، روح الجماعة منبثقة من الانفعالات البدائية والعقائد الإيمانية القوية كما يرى "غ، لوبون"، لكن نظرية "غ، لوبون" جاءت واضحة وبسيطة، فقد قامت على فكرة مفادها أن كل كوارث الماضي تعود إلى تجمع الحشود التي صنعت لي نفسها مكانا على مسرح التاريخ، وقد حصل "غ، لوبون" على مكانة أكاديمية رفيعة كان يطمح لها، بعد أن قدم نظرية علمية متكاملة ومتماسكة، وأصبح الأستاذ الفكري لمرحلة كاملة، وحافظ على هذه المكانة حتى نهاية حياته. خلال العشرينيات من القرن الماضي انتشرت نظريته انتشارا واسعا، وراح هذا العلم يجذب بقوة النخبة الديمقراطية التي وجدت فيه تفسيراً علمياً للخوف العميق من الحشود المجتمعة من جهة، وأيضاً القواعد التي تساعد على التحكم بعنف الحشود من جهة ثانية.

Bibliographie

Certeau, M. (1980). *de L'Invention du quotidien*. Paris: Arts de faire.

Descombes, V. (1996). *Les institution du sens*. Paris: Minuit.

Gusfield, J. (1981). *The Culture of Public Problems*. Chicago: University of Chicago Press.

Koselleck, R. (1990). *le futur passé*. Paris: Editions de L'EHESS.

Lippman, W. (1965). *Public Opinion (1922)*. New York : The Free Press.

Marcuse, H. (1964). *One-Dimensional Man*. Boston: Beacon Press.

Merlin, H. (1994). *Public et Littérature en France au XVIIIE siècle*. Paris: Les Belles Lettres.

حسن احمد القرعة غولي. (2014). *سيكولوجية الوعي الذاتي والاقناع الاجتماعي*.

عمان: مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع.

سليمان مظهر. (2010). *نظرية المواجهة النفسية الاجتماعية*. الجزائر: ثالة للنشر والتوزيع.

محمد امطوش. (2018). *الندرائعية والعلوم الاجتماعية (الحشد والتجمهر)*.

عمان: دار الابتكار للنشر والتوزيع.